«داني»..
رسالة «زينب» إلى إيهاب توفيق

(١)

هبطت الطائرة في مطار «ابن بطوطة» في نحو الثانية بعد منتصف الليل، كنت قد قضيت ساعة في الهواء مرعوبًا؛ بسبب راكب غيني جاورني في رحلة من الدار البيضا إلى طنجة، يهلّ الشتاء الحقيقي هناك مع نهايات سبتمبر، ولهذا لم تتوقف الأمطار طوال الرحلة، أنظر على يميني فأرى من النافذة محرك الطائرة كمروحة «فريش» غرقت في المطر، بينما ومضات البرق تنذرني بأن النهاية المأساوية واردة جدًا، على يساري ظلّ الراكب الغيني يتمتم بلهجة سواحلية لم أفهمها، ظننته ينطق الشهادتين على طريقته، لكن الأمر استمر حتى هبطت الطائرة، انتهى الكابوس تمامًا عندما استقبلت لفحة البرد على سلم الطائرة، لأستجمع أنفاسي مجددًا.

أول زيارة للمغرب عام ٢٠١٠ تركت انطباعًا دائمًا عن بلد ساحر شعبه ودود وبشوش للغاية، في المطار استقبلني موظف من مهرجان طنجة السينمائي، حاملا لافتة عليها اسمي وضيفين آخرين، كان شابًا مهذبًا جدًا، ساعدني في حمل حقائبي، وإنهاء اجراءات الدخول التي لم تتطلب مساعدة

بالأساس، حتى إن ضابط الجوازات قال له متعجبًا: «الرجل قادم من بلد أبو تريكة.. لا يحتاج واسطة»، لم أبذل مجهودًا لأكتشف أن «أبو تريكة» جواز سفر لأي مصري في دول المغرب العربي، سواء قبل أو بعد اعتزاله.

غسلت الأمطار الطريق، ونحن نتجه إلى وسط المدينة، حيث فندق إقامتي، وسط الحديث عن كرة القدم ومنتخب الساجدين، وسبب أفول نجم أسود الأطلسي كانت عيناي متعلقة بالشوارع الساكنة، لفت انتباهي دقة تصميم الأرصفة التي حدّها مصارف على جانبي الطريق جعلت مياه الأمطار تجري كأنهار صغيرة نحو بالوعات لا تلحظها العين بسهولة، هطول الأمطار هناك أشبه بعملية غسيل طبيعية لا تكلف الحكومة عناء تصريف برك المياه وتسليك المواسير المسدودة، تفرض تلك المشاهد نفسها على ذاكرة أي مصري في الغربة، فيبدأ العقل في إجراء مقارنات سخيفة تنهيها قائلًا في سرك: «بس برضه فيها حاجة حلوة!».

وصلنا إلى فندق «رمبراند»، يشبه فنادق وسط البلد، بجوار بابه الكلاسيكي الضخم المُطعَّم بزخارف نحاسية مدهشة خطفت عيني لوحة رخامية ترحب بزيارة الزعيم التونسي هواري بو مدين في أواخر الستينيات، هذا بلا شك فندق عريق، وإن كان تقييمه ضمن فئة الثلاث نجوم منطقيًا إذا ما رأيت غُرفه على الطبيعة، هذا شيء وبهو الاستقبال شيء آخر، تخيلت للحظة أنني في بهو قصر دراكولا في رومانيا، الظلام الذي يكسره ضوء الشموع المتراقص على جسد التماثيل النحاسية، صمت مخيف قطعته حركة موظف

الاستقبال العجوز خلف مكتبه، استقبلني بحفاوة كمن نسي وجوه البشر، قال لموظف المهرجان بسعادة كبيرة: «حجز السيد موجود، وغرفته في الطابق الثاني، ومطلة على البحر مباشرة كما طلبتم».

بعد دقائق كنت في غرفتي، ألقيت ظهري على الفراش قبل أن توقظني طرقات خفيفة على الباب، مرّت سبع ساعات كأنها ثانية، على الباب وجدت فتاة أنيقة ترتدي بلوزة بيضاء وجيبة سوداء تحمل في يديها سلة فواكه صغيرة وطبق به حلوى تقليدية مغربية، قالت لي «زينب» -كما عرفتها- أنها تُدعى «كعب الغزال»، وضعت الأطباق على طاولة، وبابتسامة واسعة سألتني: «كيف كانت ليلتك»؟

(٢)

كان السؤال بداية مناسبة لأسئلة كثيرة من «زينب» عن مصر، قالت إنها تسمع الأغاني المصرية منذ طفولتها، تحب عبد الحليم وأم كلثوم وعبد الوهاب، عندما عرفت أنني صحفي سألتني عن إيهاب توفيق، تعجّبت من ذوقها المتباين، من كوكب الشرق رأسًا إلى البوب!

ظلّت تحكي عن آخر حفل حضرته لـ«إيهاب» في المغرب، وكم كان ودودًا ومتواضعا بقبوله التقاط الصور مع معجبيه بعد الحفل، ثم أخرجت هاتفها من جيبها لتريني صورتها معه، قالت بلهفة: هل تعرف أنني أحفظ كل أغانيه من أول ماغنى «بحبك يا أسمراني».

غادرت «زينب» بعد أن أوصتني بإرسال السلام لإيهاب توفيق عند عودتي لمصر، ولكن «زينب» تركت الأغنية عالقة في ذهني، وقفت أمام مرآة الحمام لأحلق ذقني وأنا أغني مطلعها «جاني بالفرح جاني»، ولكنني عرفت بعد أن أدرتها عبر «يوتيوب» أن مطلع الأغنية يقول «داني» وليس «جاني»، ولكن ما معنى عبارة «داني بالفرح»؟

في صيف ١٩٨٩ بدأت علاقة إيهاب أحمد توفيق بسوق الكاسيت رسميًا، الصدفة وحدها حولت طريق «إيهاب» من التدريس بكلية التربية الموسيقية إلى الغناء، وكما يحكي فإنه لم يخطط يومًا أن يصبح مطربًا مشهورًا، بل كان أقصى ما يحلم به أن يُعيّن معيدًا في الكلية، بعد أن قضى سنوات دراسته طالبًا متفوقًا.

في السنة النهائية من الكلية كان الطريق ممهدًا نحو لقب المعيد إيهاب أحمد توفيق، ولكن موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب ألغى «أحمد»، واكتفى باسم شهرة هو «إيهاب توفيق»، يروي إيهاب كواليس اللقاء الأول مع عبد الوهاب قائلًا: تقدمت لمسابقة نظمتها مجلة أكتوبر للأصوات الجديدة، والفائزون حظوا بلقاء مع موسيقار الأجيال، كان ذلك في حضور الموسيقار حلمي بكر وآخرين، وطلب منا عبد الوهاب أن نغني، فلم يتجرأ أحد، إلا أنا تقدمت وغنيت «من غير ليه»، أعجب عبد الوهاب بثقتي قبل صوتي، وشيئًا فشيئًا سلطنه أدائي، فطلب مني أن أغنيها مرة أخرى، فأديت بثقة أكبر، فقال للحضور: «الولد ده هيبقى كويس، اسمك من النهارده إيهاب توفيق، ده اسم فني حلو».

غـادر «إيهـاب» اللقـاء دون أن يلمـس طريقًـا واضحًـا نحـو مسـتقبله، مـا فائـدة الفـوز في مسـابقة لا تضمـن لـك مواصلـة الطريـق؟ حكايـة ظلـت تتكـرر بعـد سـنوات طويلـة مـع التطـور الطبيعـي لهـذه المسـابقات تحـت مسـمى برامـج اكتشـاف المواهـب، أضـواء تحيـط فراشـات سريعًـا مـا تحـترق، ونحـن لا نعـرف لمـاذا أصبحـوا نجومًـا في لحظـة؟ ولمـاذا نسـيناهم سريعًـا؟ هـل تتذكـر اسـم صـوت فائـز بمسـابقة مـا بعـد خمـس سـنوات مثـلًا؟ أشـكّ.

(٣)

في نفـس الوقـت كانـت رحلـة إيهـاب توفيـق اليوميـة إلى شركـة «سـونار» قـد بلغـت عامهـا الثـاني، يفصـل كوبـري قـصر النيـل بـين مقـر الشركـة في جـاردن سـيتي وكليـة التربية الموسـيقية بالزمالـك، مشـوار وصفـه «إيهـاب» بتوقيـع الحضـور اليومـي؛ لإثبـات وجـوده ضمـن قائمـة مطربـين جـدد تسـتعد الشركـة لإطلاقهـم في السـوق تحـت رعايـة حميـد الشـاعري.

انفجـار «لولاكـي» عجّـل بالتغيـير في سـوق الكاسـيت، بعـد نجـاح عـلاء عبـد الخالـق وحنـان وعمـرو دياب ثمـة قبـول عـام بـين صفـوف المسـتمعين لاسـتقبال أصـوات جديـدة، وبالفعـل بـدأت الشركـة تحضيراتهـا لألبـوم «لقـاء النجـوم ١»، بالطبـع كان الصوتـان الجديـدان همـا إيهـاب توفيـق ومصطفـى قمـر، إلى جوار النجمـين الأبـرز وقتهـا عـلاء عبـد الخالـق وحنـان، ومعهـم حميـد الشـاعري الـذي قـرر وضـع «شـعار» بـارز عـلى غـلاف الألبـوم هـو «موسـيقى الجيـل»، تنبـأ «حميـد» مبكـرًا أن هـذا الشـعار

سيتحول سريعًا إلى ختم ضمان لمشتري أشرطة الكاسيت، هؤلاء الشباب يقدمون موسيقى جديدة للجيل الجديد من المستعمين، فما المانع أن نقول لهم هذه هي موسيقى الجيل؟!

طُرح الألبوم بالأسواق، وقد ضم أغنيتين لـ«حنان»، وأغنيتين لـ«علاء»، ومثلهما لـ«حميد»، وأغنية لمصطفى قمر، وأغنية لإيهاب توفيق هي «بحبك يا اسمراني»، ونجحت الأغنية بل كانت الأبرز في الألبوم، دون أن يعرف الناس من هو صاحب الأغنية، يفسر «إيهاب» ذلك بأن غلاف الألبوم كان بحجم علبة الكبريت، بينما احتوى صور خمسة مطربين كل صورة بحجم نصف طابع بريد، خاصة وأن صور «حميد» و«علاء» و«حنان» كانوا أكبر حجما بحكم «الأقدمية» والشهرة، ولكن الأغنية «فرقعت» بلغة السوق، فتحمّست الشركة للانتهاء سريعًا من ألبوم «إيهاب» الأول، والذي حمل اسم «إكمني» ليصدر في العام التالي إي بعد عدة أشهر فقط.

لّحن أحمد منيب أغنيتين في الألبوم وهما «إكمني» و«علمي»، اسم «منيب» شهادة ميلاد لأي مطرب وقتها، بجانب شهادة الضمان التجاري وهي حميد الشاعري الذي لّحن «بحبك يا اسمراني» التي كتبها عادل عمر، ولكن الشركة أرادت استثمار نجاح الأغنية في ألبوم «لقاء النجوم» لتضمن بها رواج ألبوم «إيهاب» الأول، فماذا فعلت؟

يقول «إيهاب»: «فكّرنا في حل، فاقترح «حميد» أن نضيف مقطعًا من الأغنية بعد أغنية «علمي»، على أن نجري تعديلًا على الصوت ليصبح أسرع، بمعنى أدق شبه صوت «فطوطة»، تعجبت من الاقتراح، ولكن التجربة أثبتت صدق نظرية

حميد».

نجح ألبوم «إكمني» نجاحًا كبيرًا، وعرف الجمهور أن إيهاب توفيق هو صاحب أغنية «بحبك يا اسمراني»، ورسخ الألبوم لفكرة الثمانية أغنيات السريعة التي لا تتجاوز مدتها مجمعة النصف ساعة، شجع هذا النجاح شركة سونار على إنتاج الألبوم الثاني «مراسيل» والذي صدر عام ٩١، وبدا كنسخة طبق الأصل من ألبوم «أكمني»، وكأن «إيهاب» سجّل أغنيات الألبومين معًا!

(٤)

نجح ألبوم مراسيل ببصمة حميد الشاعري، وبقيت أغنية «على كيفك ميل» واحدة من أهم أغنيات الألبوم حتى الآن، الأغنية التي لحّنها مصطفى قمر، وكتبها سامح العجمي في مرحلة كان هذا الثنائي مكونًا لمعادلة نجاح أي أغنية، ربما كان أكثرها بريقًا أغنية «عودة» التي غناها حميد الشاعري، عرف إيهاب طريق الفيديو كليب مع مطربي الجيل، وصور «مراسيل» و«على كيفك ميل» بطريقة بدائية، ولكن الأخيرة كانت أشبه بقصة رومانسية بسيطة بين زوجين، وتم تصويرها في شقة، وأخرجتها «لينا»، وشجّع هذا «إيهاب» على تصوير أغنية «بحبك يا اسمراني» بتقنيات أفضل، قبل أن يصور عددًا أكبر من الأغنيات في ألبومه الثالث «رسمتك»، والذي كان آخر أعماله مع شركة «سونار».

يرى «إيهاب» أن انفصاله عن «سونار» كان ضروريًا؛ لرغبته في رسم طريقه بنفسه بعيدًا عن رؤية حميد الشاعري

وفريقه، حيث يقول إن الاختيار في هذه المرحلة لم يكن له هو كمطرب، بل شاركه فيه كثيرون بداية من «حميد» ووصولًا إلى مديري الإنتاج، وبعد انفصاله عن الشركة تحوّل هو لأب شرعي للعمل كاملًا.

دفع «إيهاب» شرطًا جزائيا ضخمًا للخلاص من «سونار»، قال إنه وازى عشرة أضعاف ما تقاضاه من الشركة، ليقدّم بعدها ألبوم «هتعدي» الذي لم يحقق أي نجاح يضاهي نجاحاته السابقة، خاصة وأنه تعاون مع ملحنين وشعراء وموزعين مختلفين تمامًا، وسريعًا ما تجاوز هذا الألبوم بتعاقده مع شركة «هاي كواليتي» التي بدأ معها مرحلة جديدة من النجاحات في أبرزها أغنية «عدى الليل» و«أكتر من كده إيه»، و«الأيام الحلوة»، و«تترجى فيا»، مرحلة كانت السقف الأعلى في نجاحات «البوب» الذي اكتشف لنفسه خلطة تجمع بين نكد «هاني شاكر» الغارق في الدراما والشجن، وخفة أغنياته الأولى مع حميد الشاعري، ولكن الجمهور لم يعد متذوقًا لسر الخلطة بمرور الزمن، وعامًا وراء الآخر توارى نجاح «إيهاب» كما توارت محلات «ويمبي»، إلى أن ظهر بديل أكثر عصرية وقوة مثل «ماكدونالدز» و«كنتاكي»، وظلّ للمحل القديم فرع واحد في مصر الجديدة بقي كأطلال لذكريات جميلة.

قبل العودة إلى مصر بيوم جاءتني «زينب» وبين يديها علبة حلويات مغربية صغيرة، قالت لي: «عرفت أنك ستغادر غدًا، أرجو أن تقبل هديتي».

شكرتها على موقفها اللطيف، رغم أنني أحمل كميات

ضخمة من حلوى «كعب الغزال» التي وقعت في غرامها، بعد ثوانٍ اكتشفت أن علبة الحلوى عربون بسيط من «زينب» لكي أوصِّل رسالة مهمة: «سلم لي على إيهاب توفيق».

«داني – بحبك يا أسمراني»
غناء: إيهاب توفيق
ألحان: حميد الشاعري
كلمات: عادل عمر
توزيع: حميد الشاعري
إنتاج: سونار

obeikan.com